خطورة الفكر السلفي على بعث الإسلام من جديد

محاور المقال:

- أنواع السلفية المعاصرة.
- مكمن الخطورة في الفكر السلفي.
- العهد الراشدي.
- علماء السنة.
- الحالة القدرية للأمة الإسلامية.
- علماء الإسلام.

أحمد طه

22 ذو الحجة 1434 - 27/ 10/ 2013

www.ommaty1401.blogspot.com

أنواع السلفية المعاصرة

مصطلح "السلفية" مصطلح معاصر ظهر تقريباً في فترة السبعينات - بمصر - كجماعات ودعوات، وهي مشارب شتى، ومواقف مختلفة، وكل شيخ وطريقته ! ومما دفعني إلى كتابة هذا المقال هو شيوع مصطلح "السلفية" على أنه مقياس للحق، وعلامة الهدى، بل وصك للغفران.. يصدره الشيخ أو الهيئة فيقول هذا سلفي، وهذا غير سلفي!! ثم يدعي الجميع أنهم يتبعون الكتاب والسنة، ومن أسهل الإدعاء !

فما هي أنواع السلفية المعاصرة ؟

1. **سلفية الطواغيت.**
2. **السلفية العلمانية.**
3. **السلفية الحركية.**
4. **السلفية الجهادية.**

1- سلفية الطواغيت

لا يستطيع أي طاغوت استبدادي أن يعيش ويستمر بدون "رجال كهنوت" تستخدم من الدين "وسيلة" لحماية الطاغوت، وخداع الناس، وتحريف الكلِم، وإحباط الجهاد، ويغدق الطاغوت على "رجال الكهنوت" الحماية والمال والدعم والإعلام، ويجعلهم "حماة الدين والوطن" !! وهذه هي "سلفية الطواغيت" التي جعلت من الحاكم إله، والدين: طاعته. والعقيدة: عدم الخروج عليه !

وهي تلك السلفية التي تُشرعن، وتُأصل، لطواغيت العرب.. كلاب اليهود والصليبيين. وترسخ وجودهم باسم "السلفية" مُتخذة من ظروف استثنائية خاصة في فترة "الملك العضوض" نفس المصطلحات والاجتهادات مثل "المصالح والمفاسد، حقن الدماء، الفتنة.. إلخ" ثم تجد في النهاية: أنها انتصرت للطاغوت، وألقت باللوم والذنب على الأمة، سلفية لم ولن تتبن يوماً قضية واحدة من قضايا الأمة المصيرية.

وتظل خادمة لكل طاغوت، وتتخذ من الهدي الظاهر، غطاءً للتدليس على الأمة.. ومن الانتساب للسلف قناعاً لخداع الناس.

وهي سلفية لا تستطيع إلا أن تعيش في بيئة الاستبداد والظلم، ولا تعرف إلا أن تحمي الطاغوت، حتى أننا وجدناها تدافع عن الحملات الصليبية على بلاد الإسلام، وتقول على قائد الحملة الصليبية ولي أمر يجب طاعته !

وهذه الفكر السلفي الطاغوتي من أخطر ما يمكن على الأمة وعلى بعثها من جديد، ويجب على علماء الأمة التصدي له، وفضحه من كل طريق.

والفكرة الأساسية والقاعدة الأصيلة لهذا الفكر هي: "**الدين في خدمة السلطان**" هكذا بدأ، وكان الجناح الثاني لـ "**أخذناها بالسيف، ومازال السيف في أيدينا**" ثم وصل ذروته ونهايته إلى: "الدين في خدمة المحتل الصليبي" بدأ الفكر السلفي بـ "شرعنة" الاستبداد والظلم والطغيان.. وإعطاء "صك التأييد السلفي" لكل مستبد، و"صك الحرمان السلفي" لكل حر؛ ثم انتهى أخيراً إلى إعطاء "الشرعية" للمحتل الصليبي ! الذي وجد فيه كل ما يريد.. فهو أفضل من الأسلحة، والمخدرات، والإفساد الأخلاقي.

فيجب قطع الطريق على استلاب عقول أبناء المسلمين، وتحويلهم إلى "**قطيع**" يؤيد كل طاغية باسم الدين.

وليس الحديث هنا عن السلف الصالح - رحمهم الله أجمعين - فالحديث عن "الفكر" السلفي.. وهو فكر أيديولوجي - عصبية ذاتية وفكرية - لا رسالي، والحديث عن أفراد معاصرة وفكر معاصر وحديث، وليس عن الصحابة والتابعين وأهل الحديث. وإن العودة إلى السلف الصالح منهم للتعلم، واحترام جهودهم في كل المجالات، فهذا لا ينكره أحد، وهم محل التقدير والاحترام، وأهل للعلم والفضل. والقدوة في السيرة النبوية، والخلافة الراشدة.

ومن خطورة هذا الفكر تحديداً:

- **جنوحه الشديد نحو الاستبداد متأثراً بمرحلة "الملك العضوض".**
- **اعتقاده أنه صاحب الحق المطلق.**
- **التعصب المذهبي.**
- **إنكاره للصغيرة، و ابتلاع الكبيرة.**

- **إلغاءه لوجود الأمة وقيمتها وشورها وطاقاتها.**
- **اعتقاده أنه وحده الطائفة المنصورة.**
- **تفسير فكره على أنه هو الإسلام، وليس للإسلام مدلولٌ سواه.**

و الحديث هنا عن "الفكر" لا "الإنسان" الذي يعتقد هذا الفكر.. الحديث عن "الفكر" السلفي لا "أئمة أهل السنة وأهل الحديث وكبار الفقهاء"، الحديث عن معالجة "المرض" لا قتل "المريض". وهكذا في كل نقد.

2- السلفية العلمانية

العلمانية: هي فصل الدين عن الحياة، وهي درجات.. ومشكلتها مع الدين.

السلفية العلمانية: هي التي تفصل واقع الحياة عن الدين.. ومشكلتها مع الواقع، بمعنى أنها تغفل واقع الأمة وقضاياها السياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ وتتجه نحو "إصلاح الذات" ! وليس لها أي علاقة بالواقع مهما حدث فيه ! فتجدها:

- تتحدث عن الأخلاق، بينما الدولة غارقة في الظلم والفساد والنهب والسرقة.
- تتحدث عن بر الوالدين.. بينما أبناء الأمة حلمهم الهجرة، والموت في سبيلها.
- تتحدث عن الأخوة.. بينما تجري دماء المسلمين أنهاراً في جوارهم.
- تتحدث عن حرمة النظرة الحرام والزنا.. بينما الأمة مُغتصبة من أعدى أعدائها.
- تتحدث عن التعايش.. وتغفل عن سقوط الأمة كلها في يد الاستعمار.

وغيرها الكثير...

وهذه السلفية تُمثل عامل تخدير خطير للأمة، وتدمر مسؤولية الفرد والمجتمع عن عودة الإسلام، وقيام الدين، وحمل الرسالة والجهاد.. وهي سلفية يرحب بها الطاغوت لتساهم في تخدير الأمة وتستكمل الدور مع سلفية الطواغيت.

3- السلفية الحركية

وهي السلفية التي ترفض سلفية الطاغوت، والسلفية العلمانية.. وتتجه نحو الحركة، والواقع، وتدخل في بعض القضايا السياسية، وهذا جهد مشكور، إلا أنها تواجه مشكلة "الجمود والتقليد".. ورغم الأطروحات القوية للسلفية الحركية إلا أنها - في النهاية - إما قلباً وقالباً مع الإخوان، وإما قالباً معها، والمحصلة - في النهاية - واحدة "تابعة" للإخوان سياسياً وحركياً. وبالتالي سليحق بها ما سيلحق بالإخوان حركياً، وفي المقال القادم - إن شاء الله - سأتحدث عن "خطورة الفكر الإخواني المعاصر على بعث الإسلام من جديد"..

4- السلفية الجهادية:

وهي ترفض كل السلفيات السابقة، وتتبنى العمل المسلح طريقاً واحداً للتغيير، بلا فكر سياسي ولا مشروع دولة، وهي متميزة بخطابها الحاد، والأطروحات القوية والعميقة.. إلا أن الاختيار الواقعي يقع فقط في العمل المسلح، وغير قادرة على صياغة خطاب دعوي وإعلامي واجتماعي يستطيع حشد الأمة، ومراعاة ضعفها، وشتاتها، وفرقتها، وغفلتها، وغثائيتها.. وتتوسع - في أحيان كثيرة - في قضية التكفير ! بل ويأخذ التكفير اتجاهاً نفسياً أكثر منه شرعياً عند بعض أفرادها !

لذا يبدو العمل المسلح والتفجيرات بلا مشروع دولة، أو قضية تستطيع أن تفهمها الأمة في حالتها الغثائية قد يكون - أحياناً - غير ذات جدوى، فإذا كان العمل المسلح وجهاد الطواغيت مشروع فقهياً، فلا يبدو له شرعية واقعية عندما يكون عمليات عشوائية غير منظمة، وغير مُحققة لأهدافها.. إذ جهاد الطاغوت لا يعني قتل بضع أفراد هنا أو هناك، بل يعني إسقاط "حكم الطاغوت ونظامه" ولذا يجب عدم الغفلة عن جهاد الكلمة، وجهاد المجتمع، وجهاد القتال.. ومراعاة الحالة الواقعية ومألاتها، ومراعاة ضعف الأمة والحلم عليها، والرفق بها، وإدراك عمليات التغريب والتجهيل، وقدرة الإعلام على صياغة العقول واغتصابها، مما يجعل "معركة الوعي" و"جهاد الكلمة" مرحلة هامة يجب على الأمة أن تنتصر فيها، وفي نفس الوقت هذا لا يمنع من جهاد المحتل، وحشد القوة، والإعداد للمواجهة الحتمية.

مشكلة أخرى تواجه السلفية الجهادية وهي الأطروحات الوهمية عن الجهاد، والتي يصنعها الطاغوت لعمل مصيدة وفخ لجذب الشباب المتحمس، ومن ثم استئصالهم، وإن تَكوّن لهم كيان حرصوا بشتى السبل على اختراقه، وتحوير أهدافه، ثم تدميره في النهاية ! سيناريو متكرر لم يسلم منه إلا قلة.

ونأمل من "السلفية الجهادية" التحرر من التعصب، والاقتراب من الأمة، وحمل مشروع دولة..

لأنه بغير "راية الشريعة"، و"عقيدة سياسية شرعية" ذات ثوابت قطعية محددة شاملة ومُحكمة وقادرة على تحريك الأمة، و"مشروع دولة".. و"جهاد" في سبيل الله، بدون كل ذلك.. فنحن نمضي إلى أوهام وأماني.

***

لذا نجد خطورة الفكر السلفي عموماً في:

- **سلفية الطواغيت**: حماية الطاغوت، وشرعنة أفعاله، وعملهم كرجال كهنوت، وتخذيل الأمة.
- **السلفية العلمانية**: تخدير الأمة، واستهلاك طاقات الإنسان في قضايا غير قضايا الأمة المصيرية، وتدمير مسؤولية الفرد والمجتمع على بعث الإسلام من جديد، وإحياء الأمة، والتغييب عن الواقع واعتزاله، ومثلهم ظاهرة دعاة الفضائيات فلهم نفس الدور لكن بأسلوب عصري شيق ممتع !!
- **السلفية الحركية**: عدم وجود راية، وعقيدة سياسية، ومشروع دولة، وجهاد.. والجمود والتقليد.
- **السلفية الجهادية**: اختزال إحياء الأمة، وبعث الإسلام في "العمل المسلح" وعدم وجود عقيدة سياسية، ورؤية متكاملة لتطبيق الشريعة، وقيام مشروع الدولة.

***

العهد الراشدي:

جاء في حديث رسول الله في قوله عن "السمع والطاعة" "...فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.." (رواه أحمد).

ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم للتمسك "بسنة" ومنهج الخلفاء الراشدين في سياسة الحكم والمال.. حيث السمع والطاعة، وحيث سنتهم - رضي الله عنهم - هي التصور الإسلامي القويم والصحيح، وهي الامتداد الحقيقي للعهد النبوي.. وعلى قِصر الحديث، فهو حديث جامع، وهو الطريق الوحيد لعودة الأمة الإسلامية وقيام دولة الإسلام من جديد.. العودة لعهد وسنة ومنهج وأخلاق العهد النبوي والخلفاء الراشدين.

***

علماء السنة:

بعد انتهاء عهد الخلافة الراشدة بانتهاء ولاية علي بن أبي طالب - كرّم الله وجه - وبدأت مرحلة "الملك العضوض" كان لهذه المرحلة خصوصية، وطبيعة خاصة.. إذ هي ليست "خلافة راشدة" وليست هي "طواغيت وحكم جبري"، كما الدولة لم تكن داخلة، ومسيطرة على المجتمع بصورة كاملة متحكمة في كل صغيرة وكبيرة.. بل كانت قوة المجتمع، وحركة العلماء، ووجود المدارس المختلفة، ذات تأثير بالغ، وهام، ومؤثر.. بعكس حال الأمة اليوم حيث الدولة تتحكم في الإنسان من لحظة الميلاد للوفاة، وتفرض عليه كل شيء.. حتى الفكر والأحلام !

ويحسن بي - هنا - أن أتكلم عن علماء السنة في مقابل أهل البدع والضلالات..

ظهر في هذا العصر - الملك العضوض - ضلالات في العقيدة والأسماء والصفات، وفي العبادة والنسك، وفي الفكر والتصور.. ولكن لم يظهر انحرفات كبرى في قضية "تبديل شرع الله" فقد كانت الخلافة - وإن كانت ملكاً عضوضاً - قائمة، والشريعة حاكمة، وأعلام الجهاد في سبيل الله دائمة..

وبالتالي توجه علماء السنة، لصد الضلالات عن العقيدة، وعن العبادة، وعن الفكر.. وبدأوا بعملية تمحيص لكل حديث وقول للنبي الكريم، وظهر مصطلح "علم الحديث" فكانت "السنة" في مقابل "البدع" التي حملتها الفرق.. وتسمى العلماء وانتسبوا إلى "السنة" وكان جهدهم - رحمهم الله - جهد أسطوري في:

- الدفاع عن السنة، وفي العناية الكبرى البالغة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم .
- وفي صدهم لضلالات أهل البدع، وأهل الكلام.

- وفي صدهم لضلالات أهل الفرق الباطنية، وعلى رأسهم الشيعة.
- وفي عنايتهم الخاصة بموضوع "الأسماء والصفات" والذي حاول تحريفه أهل الفلسفة والكلام بعد تأثرهم بالتراث اليوناني.
- وفي توحيد العبادة مما أصابها من شرك في النسك، والدعاء، والنذر، والذبح...إلخ مما ظهر على يد غلاة المتصوفة..

وغيرها الكثير...

فكان جهدهم العلمي مصدر فخر واعتزاز ومرجعية أصيلة للأمة كلها من بعدهم.. إذ قدّموا منهجهم بصورة علمية، دقيقة، أصيلة، موضوعية، لم يسبق لها مثيل !

فكان البخاري ومسلم والأئمة الأربعة.. وغيرهم من أعلام أهل السنة، والمدافعون عن الحديث الشريف، الذين استحقوا - عن جدارة - أن يكونوا مرجعية للأمة، ومن أعلامها.

***

الحالة القدرية للأمة الإسلامية:

انتهت فترة "الملك العضوض" ودخلت مرحلة "الملك الجبري، والطواغيت" تلك المرحلة التي قامت على أنقاض الخلافة الإسلامية.. بعد الهجمة الصليبية الشرسة عليها، وتحولت تلك الأمة التي كانت "خير أمة أُخرجت للناس" إلى "غثاء كغثاء السيل" فأصابها ما حذرها منه نبيها - صلى الله عليه وسلم - أصابها جميع أخلاق بني إسرائيل.. حتى بلغ قول النبي الكريم العجب إذ يقول: "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلا بِمِثْلٍ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى لَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ نَكَحَ أُمَّهُ عَلانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مِثْلَهُ" (407 / المستدرك على الصحيحين)

إذن توصيف وتشخيص حالة الأمة الإسلامية المعاصرة يقع بين هذه الأحاديث الثلاثة:

- الملك الجبري والطواغيت المبدلين للشرع، والمغتصبين للسلطة.. **هذا من ناحية الحُكام.**

- الغثائية، وفقدان القيمة والرسالة والهدف، والتخلي عن حمل رسالة الله إلى العالمين، وخلافته في الأرض بإقامة الحق والعدل الرباني، **وهذا من ناحية الأمة**.

- **ومن ناحية المنهج والسنة**، فهي أخلاق بني إسرائيل التي ورثوها تحت وطأة الاستبداد والقهر.[1]

هذا هو التوصيف الرباني لحال الأمة الإسلامية والحُكام في واقعنا المعاصر، وحتى تعود الأمة للخلافة الراشدة من جديد كما هو وعد النبي صلى الله عليه وسلم.. عليها أن تسلك نفس طريق الخلافة الراشدة، ومن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، فمعالم هذا الطريق:

- **من ناحية الحكم**: عليه أن يكون حكماً ربانياً قائماً على تحكيم وتطبيق شرع الله، وكما جاء في الحديث: "أول ما ينقض من عرى الإسلام الحكم" ولذا فإن كيفية عودة دولة الإسلام من جديد، هوإعادة تلك العروة.. وهي الحكم.

- **من ناحية الأمة**: عليها أن تعود إلى الخيرية التي وصفها الله بها عندما آمنت به وبشرعه وبمنهجه، وحملت رسالته إلى العالمين.. والتبشير بجنته، والتحذير من عذابه.. والقيام بجهاد الكلمة، وجهاد المجتمع، وجهاد القتال كي تتحول من حالتها الغثائية القائمة إلى الحالة القيمية الحية الفعالة الرائدة.

- **من ناحية المنهج**: عليها أن تتحرر من أمراض الاستبداد، وأخلاق بني إسرائيل.. واتباع منهج النبي الكريم والحلفاء الراشدين، ومواجهة الجاهلية، والاستعلاء بالإسلام كتوحيد، وشريعة، وعبادة، وهوية، وصبغة، ومجتمع، ونظام، ودولة، ومنهج، وطريق، ورسالة، وغاية.. إسلام الروح والجسد والمجتمع والدولة لله رب العالمين.

وهذا المعنى طرفاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» (صحيح الجامع 423).

وقول الإمام مالك رحمه الله: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"..

وتحويل الأمة من الحالة الغثائية إلى الحالة القيمية الحية الرائدة يبدأ بدور علماء الإسلام.

***

---

(1) وهي حوالي 20 مرض وصِفة جمعتها من القرآن الكريم، وهو بحث قيد الإعداد إن شاء الله.

علماء الإسلام:

علماء الإسلام هم الذين يرجعون إلى علوم الوحي من الكتاب والسنة، وما قدمه رواد وأعلام السنة من جهد وما اشتملت عليه أصول الشريعة وكتاب الفقهاء من علوم، ومنهج.. حتى يعملوا على بعث الإسلام من جديد.. ثم يجمعون بين علوم الوحي والمنهج الإسلامي والفكر الإسلامي من جانب، وبين علوم إدراك الواقع من الجانب الآخر، إذ لا مجال لإنزال علوم الوحي وقيام المنهج الرباني بدون إدراك الواقع إدراكاً علمياً مبنياً على معلومات صحيحة، ومعالجة دقيقة لكل معلومة، مستجمعين كل علوم إدراك الواقع من (الجغرافيا السياسية، والسياسة الدولية، والاقتصاد، وعلوم الاجتماع، والنفس، والسنن، وفقه التاريخ، وقوة الدولة، والعلوم الاستراتيجية، والتكتيكية، والإدارية، والثقافة، والإعلام والتأثير، والفكر السائد وغيرها... إلخ)[1]

بحيث - في النهاية - تكتمل علوم الشرع وعلوم إدراك الواقع الذي سيحكم عليه الشرع، ويصدر الحكم والتصور الإسلامي في صياغة شاملة، مُحكمة، مُعلنة، دقيقة تبين للناس أولاً: طريقة التعاطي مع الإسلام كمنهج، ثم ثانياً: حكم الإسلام، ثم ثالثاً: كيفية المضي في الطريق.

وهولاء العلماء حين يرجعون إلى جهد "أئمة علماء السنة" في مرحلة "الملك العضوض" يضعون نصب أعينهم الظروف السياسية والاجتماعية والمرحلة القدرية التي كانت عليها الأمة.. ويدركون طبيعة الموضوعات التي تصدى لها هؤلاء العلماء الأجلاء الفضلاء كـ (قضية الأسماء والصفات - الفرق - أهل البدع والضلالات.. إلخ) ولا يستحضرون قضايا عصرهم ومشكلاتها ! بينما الأمة دخلت في مرحلة وتحدٍ مختلف ! ويُفرّقون بين المرحلة التي عليها الأمة الآن من ناحية **الحُكام**: الطواغيت، ومن ناحية **الأمة**: **الغثائية**. ومن ناحية **المنهج**: اتباع منهج بني إسرائيل وأخلاقهم، والتخلي عن الرسالة والجهاد.

مع إدراكهم ومراعاتهم لمراحل نمو الفقه الإسلامي، فلقد استمر نمو الفقه الإسلامي وتطوره إلى نحو القرن الثامن الهجري، وكان نموه وتطوره متابعًا لنمو المجتمع الإسلامي وتطوره كذلك. وملبيًا لحاجاته المتجددة حسب بروز تلك الحاجات؛ لأن الشريعة الإسلامية كانت هي التي تحكم المجتمع وتصرفه في معظم شئونه.. بينما هي الآن مُستبدلة بالمناهج العلمانية !

---

(1) وهذه العلوم في (طور البداية) تحتاج إلى تأصيل إسلامي عميق مستمد من رسالة الإسلام وشريعته، وإلى ترشيح المفيد مما وصل إليه الابداع الإنساني في العلوم التطبيقية، وعلوم التنظيم والإدارة.. أما القيم والموازين، والتصورات والمفاهيم، والأخلاق والشعور فهي قيم وقواعد إسلامية خالصة نابعة من الإسلام وحده، وتُستمد من الوحي الرباني وحده.

والوعي بالتضخم الحاصل في فقه العبادات في تلك العصور المتأخرة من مرحلة الملك العضوض وذلك الانكماش في فقه النظم الاجتماعية، لأن مجال العبادات كان هو المجال المأمون الذي لا تؤذي فيه الثرثرة؛ بل ربما تفيد لأنها تشغل أذهان الرعية بالجدل الفقهي عن مناقشة الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في تلك العصور ![1]

وعلى المنهج النبوي، ومنهج الخلافة الراشدة وميراث علماء السنة، فإن قضية علماء الإسلام الأولى والرئيسة هي قضية "شرع الله" ببيان منزلته من العقيدة، وببيان الشبهات حوله، وببيان حال الأمة والحُكام عند التخلي عنه، وببيان كيفية تطبيقه على الواقع المعاصر بعد إدراك هذا الواقع.. بعد تحصيل علوم الواقع، والركيزة والقاعدة الربانية السنية لعلوم الوحي.. ثم تصحيح المنهج، وإحياء الأمة، ومجاهدة الطواغيت، حتى تعود الخلافة الراشدة، والحكم الرباني.

***

وأخيراً، فهذا حديث عن الفكر.. ليس مقصوداً به الطعن في الأشخاص، بل المقصود به الفكر والمنهج، وتصحيح المفاهيم والتصورات.. من أجل بعث الإسلام من جديد، وإقامة دولته، وتحكيم شريعته.

---

[1] انظر ـ إن شئت ـ نحو مجتمع إسلامي ـ سيد قطب (رحمه الله).